كونه خلقاً أياً كان ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في ريبكم: فإنه شك مسنود إلى دليل وليس لكم أيُّ دليل!

هنا يتحدى ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وأخرى ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومماثلة سورة من غير القرآن لسورة من القرآن مماثلة للقرآن كله، والتحدي قائم في مثلث: سورة - عشر سور - القرآن كله، أدناه سورة أو آية، وأعلاه كلّه، وبينهما متوسطات ذكر منها عشر سور.

وترى ما هي «سورة» ليقف التحدي عندها، أم ماذا؟

أقول: إنها لغوياً فعلة من «سور»: سور المدينة وحائطها، الذي يفصلها عن غيرها، فالسورة من القرآن آيات محدودة مفصولة عن محدودات أخرى، وبماذا؟

طبعاً بالبسملات في بداياتها كآية منها - إلّا البراءة - وفي نهاياتها كآية مما يليها كالسور كلها، وإنما تعرف البراءة سورة في نهايتها كسائر السور، وفي بدايتها بما تواتر أن ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ...﴾[1].

أولى آياتها، فالبسملة بصورة عامة - إلّا التي في النمل - سورٌ بدءَ ختم للسّور كلها، إضافة إلى المعروف المتواتر القاطع من بداياتها ونهاياتها.

وقد تدل «سورة» و«عشر سور» وأضرابها[2] أن القرآن كما هو الآن رتب سوراً زمن الوحي، مهما نزل في قسم منه سوراً وفي آخر آيات، فلو لم يكن مرتباً حينذاك سوراً لم يشمل التحدي القرآن كله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١.

(٢) مجموع ما ذكر فيه «سورة» في القرآن تسعة مواضع: هنا و٩: ٦٤ و٨٦ و١٢٤ و١٢٧ - ١٠: ٣٨ - ٢٤: ١ - ٤٧: ٢٠ - ١١: ١٣ - وعامة الدلالة فيها أن القرآن أنزل سوراً، إلّا طوائف من آياته.

أو أنه يلمح إلى ترتيب سابق للعهد المكي، وترتيب يلحقه في العهد المدني، فيما لم تنزل سوراً، ومهما يكن من شيء فلا ريب أن جمع القرآن وترتيبه لم يكن إلّا بالوحي كما أن تنزيله بالوحي: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾[١] [٢] دون تدخّل لأحد في تأليفه سوراً وآيات إلّا كما أُمر الرسول وائتمر فألّفه كما أُمِر.

فسورة من القرآن وإن كانت أقله كالكوثر، تتحدى الجن والإنس في الدهر كله، لا ردحاً من الزمن وجماعة خاصة، فالتحدي يعم الزمن وأهله: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٣] أن يأتوا بمثله بشريّاً أم إلهيّاً، فإن الله لم يكلّم أنبياءه في سائر كتابات الوحي كما كلَّم محمداً في القرآن، رمزاً لخلوده، وهيمنة له على وحي الأرض والسماء كله، وسبقة له في كافة ميادين السباق، بل ولا سباق معه فيها إذ لا رفاق!.

فإنه ليس عبارات يحاولون محاكاتها، بل هو كسائر ما يبدعه الله من آيات معجزات - وأعلى منها كلها - يعجز المخلوق من صياغته وصنعه، فهو أمر من الله كما الروح من أمره، لا يدرك الخلق سره مهما أدركوا من معناه.

إنه آية إلهية يدل بنفسه على نفسه دون شهود آخرين: ﴿لَّكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٤] فلا تعني شهادة الله بما أنزل إلّا شهادة كلام الله أنه منه دون سواه حيث: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾: فمعالم علم الله فيه باهرة: علماً في كافة الحقول أدناها صياغة

(١) سورة القيامة، الآية: ١٧.
(٢) راجع إلى تفسير الآية في سورة القيامة ج ٢٩: ٢٨٠ - ٢٨٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

الألفاظ فصاحة وبلاغة، وأعلاها العلوم الإلهية التي لن تدرك إلّا بالوحي وبينهما متوسطات.

فالبشر الذي يعرف كلام البشر بوسمته ووصمته، يعرف الوسمة الإلهية دون أية وصمة في القرآن، لحدّ لا يستطيع وحيدها في الكلام أن يعبر عنه إلّا أنه «يؤثر»: يبقى مدى الدهر دون معارضة، وإن افترى عليه: «أنه سحر» تناقضاً فاضحاً واضحاً[1].

القرآن يتحدى في كافة الحقول:

١ - فصاحة العبارة وبلاغة التعبير وهي أبسط تحدياته وأسهل معجزاته مع القمة العليا في صياغته ونظامه وتركيبه وانسجامه، أما لو صرفت الأنظار من مبانيه إلى أسراره ومعانيه، «فهنالك تنقطع الإشارات وتُحيا العبر وتموت العبارات، حيث تحار دونها العقول والنفوس، وتخضع الرقاب وتُطأطأ الرؤوس، فإنها هبّة الملكوت، وهيبة الجبروت، هناك الفزّة والهزّة، والعظمة والعزة، والنفائس والبزّة.

لقد كانت بلدة القرآن أملك البلاد لأساطين الفصحاء البلغاء، وزمنه أبهج الأزمنة بمهرة الكلام، وقد شق عليهم ظهور القمة المتفوقة في الفصاحة والبلاغة غاية الشقوة حتى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه، واعترفوا بعجزهم في أولى خطوة وأقصرها اعجازاً وهي قشرها فضلاً عن لبها، فعاد لبيدهم بنكرانه بليداً، وبليدهم بإيمانه لبيداً، وشيبتهم وليداً، وقائمهم حصيداً، وعالمهم أبا جهل، وسهيلهم على السهل، وعتبتهم أعتاهم، وبولهبهم أخمدهم وأخزاهم، وعبد شمسهم آفل، ونابغتهم خامل، وحيّ أخطبهم ميّتاً،

(١) راجع تفسير الآية ج ٢٩ ص ٢٤٦ - ٢٥٠.

وهشامهم مخزوماً، ومخزومهم مهشوماً، وسراتهم أسارى، وكبّارهم من الصَغار صِغاراً، قد وسموا جباههم بنار العار والعيار ورسموا على محاسنهم وسم السوء بالذل والصغار، وجعلت كلماته في أعناقهم أغلالاً فظلوا لها خاضعين، وطاشت ألبابهم فقالوا: إن هذا إلّا سحر مبين[١].

تحداهم القرآن فيما يعرفون من جانب اللفظ دون جناب المعنى، به كله فعجزوا ثم بعشر سور فعجزوا، ثم بسورة فكذلك الأمر، فضلاً عما تحداهم في سائر الحقول، ولكنهم التجأوا إلى مفاوضة الحقوف عن معارضة الحروف، وعقلوا الألسنة والعقول، ورضوا بكَلم الجراح عن الكلم الفصاح»[٢].

فمعجزة القرآن في سائر الحقول يفوقها تفوّق المعنى على اللفظ، والعقول على الأجسام، فما اللفظ إلّا أداة للتعبير، وهو فيها أيضاً بالغ قمة الإعجاز فضلاً عما سواها.

كما وإنَّ معجزة الفصاحة والبلاغة قد تخص أهليها، وفي خصوص العربية، والقرآن يتحدى العالمين دون خصوص العرب العرباء الفصحاء البلغاء، فالتحدي شاملٌ كافة الحقول المتسابقة ألفاظاً ومعاني وحقائق.

فرغم ما تجد في كلام غير الله - أياً كان-: القمم والسّفوح - التوافق والتعثّر - القوة والضعف - التحليق والهبوط - الرفرفة والثقلة - الإشراق والانطفاء، وأمثالها من سمات الاختلاف والتغير والنقصان والملل والكلل، لا تجد شيئاً من ذلك في القرآن، وفيه من صريح الحق، والبعد عن الكذب والخيال، ما يناحر مظاهر الفصاحة والبلاغة المرسومة!

---

(١) قسم من هذه العبارات ملتقطات من كتاب الدين والإسلام للإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء.

(٢) . . . . نفس المصدر السابق.

فالفصاحة ركنها في وصف خيالات بعيدة عن الواقع تجاوب الآمال الشاسعة، والقرآن كله حق وبيان الواقع! ومع ذلك فإنه في أعلى قمم الفصاحة!

ومن عواملها الكذب، فأي شاعر تركه إلى الصدق نزل شعره كما نزل شعر لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما، والقرآن كله صدق! وفصاحة الكلام - ولا سيما الطويل المتجول في مختلف الحقول - لا تتفق إلّا في بعض دون بعض، والقرآن كله في قمة الفصاحة!

ومن طبيعة الكلام مهما كان فصيحاً أنه يبلى على التكرار والترداد، والقرآن لا يُبلى على ترداده، بل يزهر ويبهر أكثر وأكثر.

ومنها وحتى في الأشعار مختصة ببعض المجالات دون أخرى، والقرآن زاهر في كافة المجالات!

ومن نضارة الكلام وطراوته أن ينحو منحى الزهوات والشهوات والوعود الفارغة، والقرآن مقتصر على إيجاب عبادات، وتحريم حرمات والحث على ترك مشتهيات، وأسر أهواء، وسلب حريات، وهو مع ذلك في أرفع قمم الفصاحة والنضارة.

فالتعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية وحتى في موسيقاه، إنه طريق عاقم غير مسلوك، حتى ولأنبياء الله، فكيف بسائر الناس مهما بلغوا مبالغ الأدب في التعبير، فهي طريقة خاصة بالقرآن نفسه، لا تضاهيها وحتى سائر كتابات السماء، فإن الله ما أراد في سائر كلامه ما أراده في القرآن من صيغة معجزة خالدة ولكي تتم حجته فيه، ويطمّ ربوبية العبارة والتعبير على مرّ الدهور.

فمن ذا الذي يجرؤ على محاولة أو خيالها واحتيالها لمعارضة القرآن، وحتى في هذه الناحية التعبيرية، اللهم إلّا من سامح عن عقله، وغره غروره

وفضح نفسه كمسيلمة الكذاب حيث عارض سورة الفيل: بتقوّله الخواء الخيلاء: «الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل» كما ويخاطب سجاح النبية: «فنولجه فيكن إيلاجاً ونخرجه منكن إخراجاً» وثالثهما طائش من حزب الثالوث معارضاً سورة الحمد: «الحمد للرحمن. رب الأكوان. الملك الديان. لك العبادة وبك المستعان. اهدنا صراط الإيمان» وأمثالها من تقولات وقفت لحدها دون تكرار، حيث لم تجلب إلّا الفضاحة والاختجاج! بديل الفصاحة أو الاختلاج.

وإن لأسلوب القرآن ميزته الإلهية الخاصة تمتاز آياته عن غيرها في أي كلام، وحتى أفصح من نطق بالضاد النبي محمد ﷺ وصنوه علي عليه السلام حيث يظهر ويزهو كالشمس في رابعة النهار.

وما تصدى لمعارضته لفظياً - منذ نزوله حتى الآن - إلّا مأفون الرأي مايق العقل وإن تعجب فعجب من خطيب مصقع وفارس لا يقمع، لما تصدى للقرآن أفحم وتبلد، وأبكم وتلدّد.

فهذا مسيلمة وسجاح وأضرابهم من الأولين والمتنبي والمعري وأمثالهم من الآخرين، كل بزعمه أتى بآيات تضحك منها الثكلاء وتبكي حروف الهجاء.

فيا من فجرّوا اليوم من العربية جداول وأنهاراً، وجلوا من خرائدها ثيبات وأبكاراً، وأجروا المحيط بأقرب الموارد من قاموس لغاتها، وجاؤوا بالوسيط والبسيط في مجمع البحرين من حريري مقاماتها، تعالوا تعالوا بمن يساندكم متسابقين فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.

القرآن في أقل تحدياته يتحدى بسورة وآية تشملها فيما تشمل ﴿أَن يَأْتُوا

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[١] ولكنهم قد يتحدون بآية: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] وليست هي عديمة النظائر أو قليلتها، حيث الآيات كلها آيات تعني أنها دلالات ربانية في ألفاظها ومعانيها، فضع نظراك أنّى شئت من بيناته، وسرِّح فكرك في أية آية من محكماته، تجدها شقيقة لتلك ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣]!

يا من يخلد بخلده معارضة القرآن مهما كدحت وسعيت وأتعبت نفسك وأعييت فقد تقحّمت يا خراشة على منيع سور، وتهجمت يا فراشة على بركان نور فما أجرأك يا هذه على أن تخترق! وما أحراك إذاً أن تحترق، وأنى لك التسنّم أو التنسُّم لشستّي صعود تلك المزالق![٤].

آية من القرآن إن كانت في رسالة كانت عينها، أم في خطبة كانت وجهها وزينها، أم في قصيدة فقلادة جيدها، مهما كانت حافتها كلام النبي، أو حافتها كلامٌ نبيّ!

وجملة من جمله إن أفردتها بهرت، وإن ضممتها في عقدها أعجزت وقهرت فهي على كمال إلفها بأخواتها، وارتباطها بلداتها، تامة بنفسها، قائمة بذاتها، فهاك نصف الآية ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٥].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٤) مما صنفناه وملتقطات من الإمام كاشف الغطاء.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

فهي برمتها كبعض آية جملة مستقلة، ثم قل - يلعبون - مستقلة، وبلا «يلعبون» ودون «في خوضهم» ودون «ثم ذرهم» كلها مستقلة، استقلالات خمس في آية! إن ضممتها إلى أخواتها سطعت وإن أفردتها لذاتها برعت وشعّت! متجلية ببهجة القدرة، متحلية بخالص العزة، تجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، ولا تحسبنها آية أو آيات عدة، فإنها كلها أو جلّها لو فتحت النظر وأجليت البصر، ففيها من خمس وما زاد، إلى عشر ويزيد، فخذ عشراً من «حم. تنزيل الكتاب، ١ - من الله، ٢ - العزيز، ٣ - الحكيم، ٤ - غافر الذنب، ٥ - وقابل التوب، ٦ - شديد العقاب، ٧ - ذي الطول، ٨ - لا إله إلّا هو، ٩ - إليه المصير، ١٠ -»! تصلح كل واحدة عنواناً لخطبة، ومداراً للبحث كراساً ذا الطّول بقصر أم طُول!

ثم ترى القرآن في أعلى قمم الفصاحة والبلاغة لا في حقل واحد، رغم أحوال البلغاء المختلفة غير المولفة، فامرؤُ القيس بليغ إذا ركب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وزهيراً إذا رغب! والقرآن بليغ حيثما كان!.

أيها المدعي معارضة الفصاحة القرآنية أو بلاغته، الذين عارضوا القرآن وهم يعيشون وحيه كانوا أسعد منك في البلاغة، وأروى في العربية زنداً وأكثر مراساً وأقوى أمراساً فإنهم أصلها الأصيل، ثم هم أشد على القرآن عداوة وأعمق نكاية، إذ حادهم وتحداهم، عاب آلهتهم وسفّه أحلامهم، ونكس أعلامهم، وكسر أصنامهم، وفعل بهم الأفاعيل وجاءهم بالأهاويل، وهم على ما هم لما سمعوه طاشت ألبابهم وتقطعت أسبابهم ومزقوا معلقاتهم، وافتضح من عارضه لحد أنكرها وحمّلها على غيره.

٢ - عدم الاختلاف فيه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١].

فالتدبر في مجموعة هو جعل بعضه دَبر بعض بُغية إنتاج معانٍ جمعية وجامعة إضافة إلى مفردات، فالتدبر في القرآن حقه باستنطاق بعضه ببعض وتدليل بعضه على بعض يسفر عن كمال التلاؤم الوئام بين آياته البينات دون أيّ اختلاف، لا في آياته مع بعض، ولا فيه مع الواقع، ولا متطلبات الفطرة والحياة، ولا في ألفاظه فصاحة وبلاغة ووزناً، فأبواب الاختلاف السبعة الجهنمية مغلقة على القرآن! حيث التعبير فيه منقطع النظير لا يتفاوت فصاحة وبلاغة ووزناً ولا معنى، رغم تفاوت الحالات في نزوله نجوماً سوراً وآيات، في العهد المكي المغلوب المضايق والعهد المدني الغالب المضايق، في الحرب وفي الصلح، وفي متضادة الحالات نرى آياته البينات في تناسق مطلق شامل كامل، في كافة المجالات التي جالت فيها، وكافة الحقول التي قالت كلمتها فيها.

فظاهرة عدم الاختلاف، والثبات، هي الطابع الإلهية لكلامه المجيد، الذي لا يوجد في أي كلام من أي متكلم، حيث الخلق أيّاً كان متحول متكامل دون أي ثبات أو وقفة، نازلاً وصاعداً أم ماذا، فحالة التغير باستمرار، لزام الكائنات غير الإلهية مهما كانت في قمم الكمال كأنبياء الله!

فالاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، من باطل إلى صحيح وإلى أصح من مستوى إلى مستوى، ولا سيّما في ردح طائل من الزمن، هذا الاختلاف هو لزام الكائن غير الإلهي أياً كان، حيث لا يحيطون بكل شيء

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

علماً، وهو بكل شيء محيط، فترى من عباقرة الفكر في مختلف الحقول العلمية من يؤلفون كتباً علمية طوال زمن، فيها اختلافات حسب الحالات والبيئات التي يعيشونها، والتجربيات والتفكيرات المتواصلة التي يعملونها، ثم وأخيراً وبعد كافة التدقيقات تجدها وفيها اختلافات أو اختلاقات! ولكنما القرآن النازل طوال ثلاث وعشرين سنة في تضاد الحالات وتناقضاتها لا تجد فيه أيَّ اختلاف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] لا قليلاً، حيث القلة القليلة من العلم ينتج الاختلاف الكثير، وليس في القرآن أي اختلاف، من كثير ولا قليل.

لا اختلافاً في فصاحة العبارة وبلاغة التعبير، فإن آية منسقة على نسق واحد لا اختلاف فيه ولا اختلال، ولا فيما يحمله من معانٍ في مختلف الحقول، مما تراه واضحاً عند ما تتدبر أعمال أديب أو مفكر أو فنان أو سياسي أو اقتصادي أو اخلاقي أو اجتماعي أو عسكري أو أيّاً كان.

ولكنما القرآن مع ما يحمل من منهج التنظيم للنشاط الإنساني فرادى ومجتمعات، بشتى الملابسات التي تطرأ في الحياة، ومنهج التقويم للإدراك البشري ومنهج التنسيق بين الإنسان جملة وتفصيلاً في جميع أجياله ومستوياته وأحواله وبين هذا الكون الذي يعيش فيه، ثم بين دنياه وأخراه وثم وثم... تجد فيها كلها تلاؤماً ووئاماً تاماً دون أيّ اختلاف.

فما من مذهب بشري أو نظرية إلّا وهو يحمل الطابع المتفاوت، جزئية النظرية والرؤية، والتأثر الوقتي بالمشاكل الوقتية، وعدم الحيطة بالتناقضات التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها، وإلى مئات المئات من التضادات الناشئة من طبيعة الكائن المحدود غير الإلهي ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.